المبحث الثاني: أول ما نزل من القرآن الكريم:

القول الأول: أول ما نزل سورة العلق:

لم يقع خلاف بين العلماء في أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق فهو عندهم أول خمس آيات من سورة العلق.

روى البخاري بسنده: عن محمد بن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ . وَهُوَ التَّعَبُّدُ. اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي – ضمني وعصرني – حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ(١).

وهذا صريح في أن أول نزولٍ للقرآن كان في غار حراء، وأن أول ما نزل منه هذه الآيات الخمس من أول سورة العلق.

القول الثاني: أول ما نزل سورة المدثر:

روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعباً، فرجعت، فقلت: زَمّلُوني زمّلوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر الآيات: ١ – ٥] (٢).

---

[١] – أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٤، ٤٩٥٤؛ وأخرجه مسلم برقم ١٦٠، وقد سبق بنحوه.

[٢] – أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٤٩٢٥؛ ومسلم برقم ١٦١.

وفي رواية أخرى عن يحيى بن أبي كثير قال: «سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. قلت: يقولون: ﴿اقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾! (٣). فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺقال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني وصبوا عليَّ ماءً بارداً، قال: فدثروني وصبوا علي ماءً بارداً، قال: فنَزلت: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

وقد أشكل جواب جابرٍ ﷺ هذا على حديث عائشة رضي الله عنها أن أول ما نزل من القرآن الآيات الخمس الأولى من سورة العلق.

وقد خرّجه العلماء بعدد من التخريجات، إلا أن بعضها فيه نظر، والمعروف أن هذه الآية نزلت بعد فترة الوحي، فكانت أول ما نزل على الرسول بعدها. فلعل جابرا سمع من الرسول حديثه عن أول ما نزل عليه من القرآن بعد فترة الوحي فاعتبر ذلك أول ما نزل على الإطلاق. وأنه ﷺ استخرج ذلك باجتهاده، وليس هو من روايته فيقدم عليه ما روته عائشة (٤).

وقال الدكتور مساعد بن سليمان الطيار "ومن أحسن ما يمكن أن يُجاب عنه في هذا المقام ما يأتي: أن جابراً لم يكن على علم بما نزل في غار حراء، وإن كان في حديثه إشارة إلى نزول جبريل عليه السلام على محمد ﷺ في الغار، وإنما سمع حديثه عن نزول الملك بآيات سورة المدثر، ولم يكن قد ذُكر له نزول آيات قبل سورة المدثر، فحكم بأنها أول ما نزل. ومن التخريجات التي خُرّج بها حديث جابر – وفيها نظر – ما يأتي:

١ – أن يكون السؤال وقع عن أول سورة كاملة، فأجاب جابرٌ ﷺ بأنها سورة المدثر. وهذا التخريج لا يسلم؛ لأنه السؤال عن أول ما نزل، وليس فيه أول سورة نزلت فيمكن أن يُخرَّج بهذا التخريج احتمالاً. بل كونها أول سورة كاملة لا يستند دليل بل الدليل خلافه ف"يبطله ما ثبت في الصحيحين أن سورة المدثر لم تنزل بتمامها وكمالها بل نزلت متفرقة حتى قوله تعالى: وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ"(٥).

---

[٣] – أخرجه البخاري برقم (٤٩٢٢).

[٤] – انظر الإتقان ١/ ٧٨ – ٧٩ ففيه خمس أجوبة على حديث جابر رضي الله عنهما، وما ذكرناه أحسنها، كما ذكر السيوطي رحمه الله تعالى.

[٥] – المنار في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره: محمد علي الحسن ص ٨٢.

٢- أن تكون الأولية مخصوصة؛ إما بما بعد فترة الوحي، وإما بالأمر بالإنذار. وهذا التخريج لا يسلم؛ لأن السؤال صريح في أنه عن أول ما نزل، وليس في الأثر ما يدل على الأولية المخصوصة، وكونه ورد في حديث جابر ﷺ «سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي» فإنه لا يدل على أن جابراً ﷺ أراد الأولية المخصوصة؛ لأن السؤال كان مطلقاً عن أول ما نزل، ولم يكن عن أولية مخصوصة (٦)

إن مراد جابر يتعلّق بأوليّة الإنذار، لا مطلق الإنباء، فمن المعلوم أن سورة المدثر: نزلت آمرة النبي ﷺ أن ينطلق داعية إلى الله منذراً أهل الشرك والضلالة مغبة ما هم فيه من عبادة الأوثان وتقديس الأصنام. أما سورة العلق فلم يكن فيها شيء من ذلك، بل هو مجرد الإنباء والتهيئة لتلقي رسالة السماء(٧).

القول الثالث: أول ما نزل سورة الفاتحة:

قال في الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت «اقرأ» وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب!!.

وتعقبه ابن حجر بقوله: والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول، وأما الذي نسبه الزمخشري إلى الأكثر فلم يقل به إلا أقل القليل بالنسبة إلى من قال بالأول. حجة هذا القول ما أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدي من طريق يونس بن بكير، عن يونس بن عمرو، عن أبيه، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، والله خشيت أن يكون هذا أمرا»، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فو الله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد. فأنطلق هاربا في الأفق»، فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد قل:﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.. الحديث، هذا مرسل رجاله ثقات. قال البيهقي: إن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر (٨).

---

[٦] - ينظر في هذه التخريجات: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ١/٦٩-٧٠.

[٧] - **يراجع:** مناهل العرفان ج١ ص٨٧، ٨٨، والمنار: د. محمد حسن من ٨٠-٨٣. والمقدمات الأساسية في علوم القرآن ص ٧٢، المدخل لعلوم القرآن الكريم د. إسماعيل عبدالستار الميمني ص ٣٣.

[٨] - ١ / ١٩٤ فما بعدها.

أما الحافظ ابن كثير رحمه الله فقد ساق الحديث في كتابه (البداية والنهاية) من رواية البيهقي وأبي نعيم في دلائلهما عن عمرو بن شرحبيل ثم قال: "هذا لفظ البيهقي وهو مرسل وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل" (٩).

أقول: كون الحديث مرسلا أمارة كافية على ضعفه وعدم صلاحه للدلالة على أمثال هذه المطالب، لو استقل بنفسه، ولم يعارضه غيره، فكيف وقد عارضه غيره من حديث الشيخين السابق في أوائل هذا المبحث عن عائشة رضي الله عنها، والقاضي بأولية نجم العلق.

فمن ثم كان الصواب كل الصواب في طرح مثل هذا الخبر بالكلية وراء الظهر على مثل ما فعل الإمام النووي عليه الرحمة من إهماله وعدم المبالاة به أصلا، فقال – وصدق فيما قال – في شرحه لمسلم: "وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر" (١٠).

نقول على الرغم من وضوح الأمر بالنسبة لهذا القول، فإن البعض من أهل هذا العصر، أخذ بهذا القول!([11]).

القول الرابع: أن أول ما نزل (بسم الله الرحمن الرحيم).

ويستند هذا القول إلى ما أخرجه الواحدي بسنده عن عكرمة والحسن قالا: أوّل ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم) وأول سورة (سورة اقرأ)، وقد ذكره السيوطي في الإتقان وعزاه للواحدي (١٢).

وهذا الحديث مرسل أيضا، فليست له قوة الحديث الصحيح، ويضاف إلى ذلك أن البسملة تجيء في أول كل سورة إلا ما استثني (وهي سورة براءة)، ومعنى ذلك أنها نزلت صدرا لسورة «اقرأ» كما نزلت صدرا لغيرها من السور. اقرأ.

وقد ردّ الشيخ عبد الوهاب غزلان على كلام السيوطي قائلا: "ويندفع كلام السيوطي بأن الأحاديث الصحيحة التي روي فيها نزول صدر سورة العلق لم يرد فيها ذكر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فهو قول ضعيف، ولضعفه أعرض

---

٩ – ١ / ٩ فما بعدها.

١٠ – شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ٢٠٨. وراجع المنار في علوم القرآن: محمد علي الحسن ص ٨٣-٨٥.

١١ – وأعنى بهذا البعض الأستاذ الإمام محمد عبده قد اقتدى بالزمخشري، ولنورد لك الآن قوله بتمامه على ما نقله عنه تلميذه الأخص صاحب المنار والذي لم ير– على خلاف عادته– موافقة قول أستاذه للصواب، أو قل قد رأى بالفعل مجانبة أستاذه للصواب. فقال رحمه الله في أول تفسير الفاتحة: وأما الأستاذ الإمام فقد رجح أن الفاتحة أول ما نزل على الإطلاق: ولم يستثن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ونزع في الاستدلال على ذلك منزعا غريبا في حكمة القرآن وفقه الدين.

١٢ – أسباب النزول للواحدي ص ١٠، والإتقان؛ للسيوطي ١/ ٨٠.

عنه الزركشي، فلم يذكره، ولم يشر إليه، وكذلك لم يذكره النووي في شرح مسلم ولم يشر إليه عند ما ذكر الأقوال في أول ما نزل من القرآن"(١٣).

وبعد ما سبق يترجح ما اتفق عليه أهل العلم أن أول ما نزل بإطلاق هو صدر سورة العلق.

الأوائل النسبية:

عني العلماء في بحوثهم بالأوليات المقيدة أي النسبية في موضوع معين، أو ناحية معينة، وبالآخر المقيد النسبي كذلك، وهو مأثور في أصله عن الصحابة والتابعين، حتى ربما كانت الأولية أو الآخرية المقيدة ترد عن الصحابي أو التابعي فيظنها بعضهم مطلقة، لذلك وجب الاطلاع عليها.

ومن أمثلة أول ما نزل من القرآن مقيدًا:

١ – أول ما نزل في تشريع الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ...﴾ الآيات ٣٩ – ٤١ من سورة الحج نزلت في السنة الثانية للهجرة.

٢ – أول ما نزل في شأن تحريم الخمر: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ...﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٩] (١٤).

٣ – أول ما نزل في الأطعمة بمكة ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ ...﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٥].

٤ – أول ما نزل في الأطعمة بالمدينة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ...﴾ (١٧٣)

٥ – أول ما نزل بمكة اقرأ وأول ما نزل بالمدينة البقرة وقيل المطففين.

٦ – أول سورة نزلت بتمامها سورة الفاتحة(١٥).

---

[١٣] – البيان ص ٨١ وما بعدها، ومنة المنان في علوم القرآن ٣٥٣/٢ – ٣٥٤، والمنار في علوم القرآن: محمد علي الحسن ص ٨٥-٨٧.

[١٤] – علوم القرآن الكريم: نور الدين محمد عتر الحلبي ص٣٦ –٣٧

[١٥] – ودليله رواية مرسلة لا تثبت ذكرها الزمخشري.

المبحث الثالث: آخر ما نزل من القرآن الكريم

أتم الله النعمة على عباده ببعثة نبيه محمد ﷺ، وأكمل لهم دينهم بكتاب محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد ذكر أهل العلم –مثلما سبق– أول ما نزل وذكروا كذلك آخر ما نزل، وأفاضوا في ذلك؛ وإن تنازعوا في آخر ما نزل أكثر مما تنازعوا في أول ما نزل، وللعلم فإنه لم يرد في آخر ما نزل حديث مرفوع عن النبي ﷺ بل وردت آثار صحيحة عن الصحابة– رضوان الله عليهم– وأخرى غير صحيحة(١٦) وقد ورد في ذلك أكثر من عشرة أقوال إلا أن الواضح انهم جعلوه في الآيات والسور جميعًا ولا يمنع من أن نفصل بين آخر ما نزل من الآيات وآخر ما نزل من السور:

آخر ما نزل من الآيات:

آخر ما نزل من الآيات هو آخر ما نزل قطعًا أما آخر ما نزل من السور فهو نسبي:

القول الأول:

رواه البخاري (١٧) عن ابن عباس– رضي الله عنهما– قال: "آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا" والمراد بها قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا﴾ [البقرة آية: ٢٧٨]. وروى الإمام أحمد والنسائي والبيهقي عن عمر ﷺ: "أن من آخر ما نزل آية الربا" وهناك زيادة في الرواية أن النبي ﷺ مات ولم يبين لنا آية الربا إشارة إلى قرب وفاته. وأخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابن شهاب قال آخر القرآن عهدا بالعرش: «آية الربا»، و«آية الدين». وروى البيهقي عن عمر مثله والمراد بها قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا﴾.

القول الثاني:

رواه النسائي وابن مردويه وابن جرير من طرق مختلفة عن ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة آية: ٢٨١].

---

[16] – وهذه الأقوال اجتهادات الصحابة. فانظرها في الإتقان ٨٦/١ –٩١ طبعة دار ابن كثير الثانية ١٤١٤ هـ.

[17] – صحيح البخاري حديث رقم٤٥٤٤.

فقد وردت روايات كثيرة عن ابن عباس توضح ذلك منها ما رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "آخر شيء نزل من القرآن:﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة آية: ٢٨١] نزلت ختاما لآيات تحريم الربا وآخرها آية الوعيد الشديد: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة آية: ٢٧٩] وقد أخرج النسائي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن، وعاش النبيّ ﷺ بعد نزولها تسع ليال"(١٨). وهذا ليس منافيا لما ثبت عن ابن عباس في الآية السابقة، لأن مراد ابن عباس أنها آخر ما نزل في الربا، كما أشار لذلك الإمام البخاري رحمه الله.

ولا يخفى عظم موقع الآية من الآيات التي سبقتها وعظم الحكمة في اختتام وحي القرآن بها، فإن تأثير المال على الإنسان عظيم، والآخرة أعظم دواء لداء الدنيا وأموالها، وخير مقوّم لعوج النفس فيها، فكان اختتام الوحي بهذه الآية في غاية المناسبة الجليلة لما قصده تعالى من وعظ عباده وتذكيرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من المال والمتاع وغيرهما، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ليحاسب خلقه.

ولعل هذا القول هو أصحّها وأشهرها.

القول الثالث:

رواه ابن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن آخر آية نزلت آية الدين: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة آية: ٢٨٢]. إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهي أيضا من سورة البقرة.

القول الرابع:

أن آخر ما نزل هو قوله تعالى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ وهي خاتمة سورة النساء روى الشيخان عن البراء بن عازب قال: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ [النساء آية: ١٧٦].

القول الخامس:

إنّ آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً﴾ [سورة النساء آية: ٩٣] أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً﴾ وهي آخر ما نزل، وما نسخها شيء.

---

[18] – وانظر أيضًا: فضائل القرآن؛ لأبي عبيد (ص ٣٧٠) طبعة دار ابن كثير الأولى ١٤١٦ هـ.

القول السادس:

إن آخر ما نزل سورة المائدة، وهو مروي عن عائشة وغيرها. فقد روى الترمذي في السنن والحاكم في المستدرك عن عائشة، وعبد الله بن عمرو قولهما" :" آخر ما نزل سورة المائدة" فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه... الحديث.

القول السابع:

إن آخر ما نزل سورة النصر، أخرج مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال" :آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرها. وهي آخر ما نزل مشعرا بوفاة النبيّ عليه الصلاة والسلام، ويؤيده ما روي من أنه ﷺ قال حين نزلت: «نعيت إليّ نفسي» (١٩) وكذلك فهم بعض كبار الصحابة لحديث عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عبّاس: تعلم آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعا؟ قلت: نعم، ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النّصر آية: ١]، قال: صدقت (٢٠).

وقد روي عن ابن عبّاس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنّه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنّه دعاني يومئذ إلّا ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عبّاس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ف ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً" ﴾، فقال عمر: ما أعلم منها إلّا ما تقول (٢١).

القول الثامن:

إن آخر ما نزل هو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة آية: ٣] فقد روى البخاري ومسلم في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب :أن رجلا

---

[١٩] – رواه أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس؛ كما في الدر المنثور ٨/ ٦٦٠.

[٢٠] – حديث صحيح، أخرجه مسلم (رقم: ٣٠٢٤).

[٢١] – حديث صحيح. أخرجه النّسائيّ في «التّفسير» (رقم: ٧٧، ٧٨) وابن جرير رقم: ٦٣١١ والطّبرانيّ في «الكبير» (١١/ ٣٧١) من طريق حسين بن واقد، عن يزيد النّحويّ، عن عكرمة، عن ابن عبّاس. قلت: وإسناده صحيح.

من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أيّ آية؟! قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا﴾ قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة(٢٢).

وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ بكى لما نزلت هذه الآية، فقال له ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: أبكاني أنّا كنّا في زيادة من ديننا، فأمّا إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. قال: «صدقت»(٢٣).

وهذا القول على الرغم مما قيل في سنده، إلّا أن ابن جرير قد استشكل عليه فهم السدي ومن وافقه من أن المقصود من إكمال الدين، في هذه الآية، أن جميع الفرائض والأحكام قد تمت قبل نزولها، مع أنه نزل بعدها آية الربا وآية الدين وهما من آيات الأحكام. وقد دفع ابن جرير هذا الإشكال بقوله: "والأولى أن نتأول آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾.. على أن الله أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حج المسلمون لا يخالطهم المشركون". ثم أيده بما روي عن ابن عباس: "كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا، فلما نزلت (براءة) نفي المشركون عن البيت الحرام، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين" فمعنى الآية أن المراد بإكمال الدين إكمال سلطانه وسطوته، وإعلاء كلمته وتقوية شوكته، حيث ذل المشركون أمام المسلمين، وخضعوا لقول الله تعالى في السورة نفسها (براءة): ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ [التوبة: ٩]. فلم يجترئ أحد منهم على مخالفة هذا الحكم. وقد عقب السيوطي على الأقوال في آخر ما نزل، وقال: من المشكل على ما تقدم قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإنها نزلت بعرفة، ثم أورد قول السدي وجماعة: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام. هذا التأويل الذي ذهب إليه السدي، ومن وافقه، وهو لا ينفي أن ينزل بعدها آيات في الوعظ والتذكير والوعد والوعيد ونحو ذلك(٢٤).

وهذا القول شائع بين الناس أن آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هي آخر ما نزل: ولعل مصدر القائلين به كتاب: "تاريخ التشريع الإسلامي" للشيخ محمد بك الخضري، الذي لم ينقح الأقوال في هذا الموضوع، وقوله رحمه الله مرجوح، لم يقل به أحد من السلف فيما أعلم.

---

٢٢ – يراجع: المدخل لعلوم القرآن الكريم د. إسماعيل عبد الستار الميمني ص ٣٥.

٢٣ – رواه ابن أبي شيبة وابن جرير الطبري، كما في الدر المنثور ٣/ ١٨.

٢٤ – المنار: د. محمد علي الحسن ص٩٠ –٩٣ بتصرف. وينظر جامع البيان في تفسير هذه الآيات من سورة المائدة.

القول التاسع:

أن آخر ما نزل خاتمة سورة براءة، فقد أخرج الحاكم في المستدرك عن أبيّ بن كعب قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر السورة [التوبة آية: ١٢٨، ١٢٩].

القول العاشر:

أن آخر ما نزل هو خاتمة سورة الكهف، وفيها يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [سورة الكهف آية: ١١٠](٢٥).

موقف العلماء من هذه الأقوال:

تباين موقف العلماء حيال الأقوال المتعارضة مما سبق ما بين مرجح بينها متخذ احداها آخر ما نزل، لأسباب يراها قوية عنده؛ وبين موفق بينها كونها أقوال صحابة ليس فيها حديث واحد صحيح أو حسن مرفوع إلى النبي ﷺ، فلا يرجح بعضها على بعض إلا ما كان ثابتًا صحيحًا إلى قائله، أو لكون بعضها نزل متتابعًا إثر بعض... إلى غير ذلك مما سنعرضه وسأبدأ برأي أحد القائلين بالترجيح.

لقد حاول بعض المعاصرين الترجيح بين هذه الأقوال من هؤلاء الدكتور يوسف الجديع حيث يرى أن: "آخر آية نزلت من القرآن كلّه قوله تعالى من سورة البقرة في ختام آيات الرّبا: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة آية: ٢٨١].

فعن ابن عبّاس، رضي الله عنهما، قال: آخر شيء نزل من القرآن: وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (٢٦). وفي رواية أخرى عنه، قال: آخر آية نزلت على النّبيّ ﷺ آية الرّبا (٢٧). فالمقصود به الآية المذكورة، فهي تمام آيات الرّبا ومعطوفة عليها. وأمّا ما ثبت عن البراء بن عازب ﷺ، قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ [النّساء آية: ١٧٦](٢٨). فهذا محمول على أنّها آخر ما نزل من القرآن في أحكام الميراث.

وحديث ابن عبّاس المتقدّم سالم في التّحقيق من معارض قائم، إذ هو إمّا معارض بما أريد به شيء مخصوص، كما في حديث البراء المذكور، وإمّا معارض بما لم يثبت من جهة الإسناد إلى قائله.

---

[٢٥] - يراجع في كل ما سبق وغيره: الاتقان، ١/٢٣ – ٢٨، والبرهان، ١/٢٠٩ – ٢١٠.

[٢٦] - حديث صحيح. أخرجه البخاريّ (رقم: ٣٤٢٨، ٤٠٤٣، ٤١٦٧، ٤٦٨٥، ٤٦٨٦) وهو في بعض هذه المواضع مختصر.

[٢٧] - حديث صحيح. أخرجه البخاريّ (رقم: ٤٢٧٠).

[٢٨] - حديث صحيح. متّفق عليه: أخرجه البخاريّ (رقم: ٤١٠٦، ٤٣٢٩، ٤٣٧٧، ٦٣٦٣) ومسلم (رقم: ١٦١٨).

وأمّا ما صحّ عن البراء بن عازب من قوله: ... وآخر سورة أنزلت براءة. وفي لفظ: إنّ آخر سورة أنزلت تامّة سورة التّوبة، وإنّ آخر آية أنزلت آية الكلالة (٢٩). فقد يكون قصد آخر ما نزل في الطّوال؛ وذلك أنّ سورة التّوبة ليس فيها الإشارة إلى أجل النّبيّ ﷺ كما وقع في سورة النّصر، وإنّما نزلت سورة التّوبة بعد غزوة تبوك وبعد هجر النّبيّ ﷺ للثّلاثة الّذين خلّفوا حيث نزل القرآن بشأنهم، وذلك في سنة تسع للهجرة، وكانت قد نزلت قبل الحجّة الّتي بعث النّبيّ ﷺ أبا بكر عليها، فقد بعث عليّا بهذه السّورة في تلك الحجّة، ومكث النّبيّ ﷺ بعدها ما يزيد على عام، وصحّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه: إنّ الله عزّ وجلّ تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته حتّى توفّي، وأكثر ما كان الوحي يوم توفّي رسول الله ﷺ(٣٠).

والحقيقة أنه ليس في كل ما سبق من الأقوال -مثلما رأينا- قول مرفوع إلى النبي عليه السلام، وهي جميعا مستندة إلى اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم. والجمع بين هذه الروايات فهو المسلك الأسلم والأصوب، ما دام الجمع ممكنا، وهو مقدم على الترجيح، لأن في الجمع إعمال الأدلة، وفي الترجيح إهمال لبعضها. قال البيهقي: يجمع بين هذه الاختلافات إن صحت، بأن كل واحد أجاب بما عنده. وقال القاضي أبو بكر في كتابه "الانتصار": "وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبي ﷺ، ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظن، وليس العلم بذلك من فرائض الدين حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط، ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه عن رسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو لمفارقته له، ونزول الوحي عليه بقرآن بعده، ويحتمل أيضًا أن تنزل الآية، التي هي آخر آية تلاها الرسول مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرا وتلاوته، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل في الترتيب».(٣١).

لذا فقد سلك الإمام السيوطي مسلك الجمع، ونقل ذلك عن الحافظ ابن حجر العسقلاني، قال السيوطي: "ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا، واتقوا يوما، وآية الدّين لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ولأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما أنزل بأنه آخر وذلك صحيح هذا القول السديد في آخر ما نزل، وبالتأمل الدقيق في هذه الروايات نجد دلائل قوية مع من ذهب إلى الجمع بين الأقوال، مع وجاهة حجج المرجحين.

---

٢٩ - حديث متّفق عليه، ولفظه الثّاني لمسلم.

٣٠ - حديث متّفق عليه: أخرجه البخاريّ (رقم: ٤٦٩٧) ومسلم (رقم: ٣٠١٦). المقدمات الأساسية في علوم القرآن: عبد الله بن يوسف بن عيسى اليعقوب الجديع ص ٧٢ وما بعدها بتصرف

٣١ - ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٢١٠/١.

أما دلائل الجمع بين الروايات فلما أسلفنا من أن إعمال جميع الأدلة خير من إهمال بعضها، وليس في هذه الروايات ما يناقض بعضه بعضا، حتى نرجح بعضها أو نسقط شيئا منها. وكذلك فإن ابن عباس، الذي صح عنه رواية آخر ما نزل آية الربا، هو نفسه من روى عنه آية وَاتَّقُوا يَوْماً..، ولا يعقل أن يناقض نفسه. فالأولى أن نقول بعدم التناقض في أقواله.

أما القول بترجيح آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً..﴾، فإن هذه الرواية وإن ارتاحت النفس إلى أنها آخر ما نزل إلا أنها لا تعدل في سندها رواية آية الربا التي رويت في صحيح البخاري.

أما الترجيح فيقتضي القول بترجيح ما رواه البخاري في صحيحه أن آية الربا هي آخر ما نزل. ومن العلماء من قال بترجيح نزول آية: وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ [البقرة آية: ٢٨١]. وقد ذهب إلى ذلك الزرقاني وقال: إن النفس تستريح لمثل هذا القول لما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين، بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم الميعاد، وما تنوه به من الرجوع إلى الله، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها. وأيد ذلك أيضا أن الروايات قد نصت أن النبي ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ولم تظفر الآيات الأخرى بهذا التنصيص؛ ومعلوم تقديم روايات البخاري على غيره، فلا نقدم رواية وَاتَّقُوا يَوْماً عليها لأنها أضعف سندا، أما دعوى أن آية وَاتَّقُوا يَوْماً.. قد اقترن بها ما يفيد أن النبي ﷺ لم يعش بعدها إلا تسع ليال فليست هذه قرينة على أنها متأخرة في نزولها على آيتي الربا والدّين، لأن في آية الربا رواية مساندة تقول بأن النبي ﷺ مات ولم يبين لنا آية الربا لقرب وفاته، وفي آية الربا دلالة على أنها آخر ما نزل، حسبما وردت الروايات الصحيحة، وهي مقدمة في صحتها على رواية نزول آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً ﴾كما أن الرواية تقول: إن آية الدّين أحدث آية بالعرش، وما كان كذلك يدل على أنها آخر القرآن نزولا، لأن الأحدث نزولا من العرش هو الآخر نزولا إلى الأرض.

من أجل كل هذا وغيره نقول: إن آخر ما نزل هو جميع هذه الآيات ويساعد على ذلك ترتيبهما في المصحف بل رأى ابن حجر أنها قصة واحدة:﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ٢٨١ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ..﴾ [البقرة الآيات: ٢٧٨ - ٢٨٢] الآيات. إنها حقا قصة واحدة ومجالها المعاملة المالية، لأن الآيات تتحدث عن ربا النسيئة وهو المراد هنا، وإنما يترتب على الدّين، فهي في أمرين، أحدهما متفرع عن الآخر وبهذا يكونان في قصة واحدة.

ويؤيد ذلك صنيع البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ [البقرة: ٢٨١] ثم ذكر حديث ابن عباس "آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا" (٣٢).

الأواخر النسبية:

ومثلما ذكرت في أوائل نسبيه فهناك أواخر نسبية مقيدة، فمن ذلك:

١ – آخر ما نزل يذكر النساء خاصة: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾ الآية في أواخر سورة آل عمران.

٢ – آخر ما نزل في المواريث آية الكلالة في آخر سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾. صحّ بذلك الخبر عن البراء بن عازب ﵁.

٣ – آخر سورة نزلت من الطوال التوبة. صحّ بذلك الخبر عن البراء بن عازب ﵁، وقد روي عن عثمان ﵁، وكما ورد عن عائشة رضي الله عنها.

٤ – آخر سورة نزلت بتمامها من القرآن: ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

٥ – آخر ما نزل في الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾. [المائدة آية: ٩٠].

٦ – آخر ما نزل بمكة سورة المؤمنون وآخر ما نزل بالمدينة سورة براءة

بهذا يتضح لنا وجاهة رأي القائلين بالترجيح، وحرص القائلين بالجمع على إعمال جميع النصوص، كما يتبين لنا حسب القول الأول أن هناك أواخر نسبية لآيات وسور يمكن القول بتأخر نزولها حسب ما قدمت.

---

[٣٢] – يراجع: المنار في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره محمد علي الحسن ص ٨٧–٩٠.

شبهات حول آخر ما نزل من القرآن:

ذكرت أنه وردت روايات عن الصحابة صحيحة، وأخرى ضعيفة في أواخر ما نزل من القرآن وليس في هذه الروايات ما رفع إلى النبيّ ﷺ، فتحتمل أن تكون الرواية قد قالها الصحابي بضرب من الاجتهاد، وتحتمل أن تكون آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ. ولا يلزم أن يكون آخر ما سمعه هو آخر القرآن نزولا، لأن قول الصحابي في مثل هذا الأمر، يعطي حكم الموقوف، ولا يعطي حكم الرفع، لأن مضمونها لا يتوقف على التلقي والتوقيف، بل يمكن معرفته عن طريق ملازمة الرسول في أيامه الأخيرة، فكلّ يرى أنه سمع من الرسول ﷺ شيئا من القرآن قبل وفاته لم ينزل عليه بعده شيء فيكون آخر ما نزل من القرآن بحسب ظنه واجتهاده، كما في حديث عثمان المشهور "براءة من آخر ما نزل". وكما ورد عن عائشة: "أن آخر سورة نزلت المائدة" ومن هذه الآثار ما رواه الشيخان عن البراء بن عازب، أن آخر سورة نزلت براءة، وأخرج مسلم عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ [النصر: ١]، والكلام يطول في مناقشة كونها آخر ما نزل، وفي دعوى نزولها كاملة، أو نزول معظمها إذ من المحتم من خلال استقراء الآيات وأسباب نزولها أنها لم تنزل دفعة واحدة، لذا حملت هذه الروايات على أن كل واحد أجاب بما عنده حسب ظنه الذي لا يوافق ظن غيره فيما قاله، أو تحمل هذه الروايات على أن هذه السور القرآنية من أواخر ما نزل ولكنها ليست الآخرية المطلقة.

الفصل الخامس

جهات نزول القرآن الكريم والمكي والمدني

المبحث الأول: جهات نزول القرآن الكريم

من المسائل المتعلقة بالقرآن الكريم معرفة أين نزل، والمشتهر من هذا المبحث معرفة المكي والمدني، أما جهات نزوله فتعني: الأماكن التي نزل فيها القرآن على النبيﷺ ، وهي كثيرة؛ فمنها: مكة والمدينة والطائف والحديبية وبيت المقدس.

وقد حاول الباحثون أن يتتبعوا ما نزل في هذه الأماكن وغيرها، معتمدين في ذلك على الروايات الصحيحة، ليستعينوا بمعرفة جهات النزول على فهم الأحكام الشرعية التي تضمنتها الآيات، وليعرفوا الناسخ منها والمنسوخ، وغير ذلك من الفوائد التي سيأتي بيانها.

نقل السيوطي في الإتقان(٣٣) عن أبي القاسم النيسابوري في كتابه "التنبيه على فضل علوم القرآن" قوله: "من أشرف علوم القرآن علم نزوله، وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكيّ، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي(٣٤)، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلًا، وما نزل نهارًا، وما نزل مشيعًا(٣٥)، وما نزل مفردًا، والآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكيات في السور المدنية، وما حُمِلَ من مكة إلى المدينة، وما حُمِلَ من المدينة إلى مكة، وما حُمِلَ من المدينة إلى أرض الحبشة، وما أُنْزِلَ مجملًا، وما نزل مفصَّلًا، وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي. فهذه خمسة وعشرون وجهًا مَنْ لم يعرفها ويميّزْ بينها، لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى".

لكن هذا الذي قاله رحمه الله مبالغ فيه فمعرفة ذلك كله لا يترتب عليها فوائد ذات بال، وقوله: "مَنْ لم يعرفها ويميّز بينها لم يحِلّ له أن يتكلم في كتاب الله تعالى" حكم غير صحيح. نقل الزركشي في البرهان عن القاضي أبي بكر في الانتصار: "إن هذا يرجع إلى حفظ الصحابة وتابعيهم، غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول، ولا ورد عنه أنه قال: اعلموا أنَّ قدر ما نزل بمكة كذا، وبالمدينة كذا، وفصَّله لهم، ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر، وإنما لم يفعله؛ لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة. وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، ليُعْرَف الحكم الذي تضمنها، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ وقوله

---

[٣٣] – ١/٣٦ طبعة الحلبي.

[٣٤] – البرهان للزركشي ١/١٩٢.

[٣٥] – ثبت أن سورة الأنعام قد شيعها عند نزولها من السماء سبعون ألف ملك.

هذا هو الأول المكي، وهذا هو الآخر المدني. وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم لما لم يعتبروا أنَّ من فرائض الدين تفصيل جميع المكي والمدني مما لا يسوغ الجهل به، لم تتوفر الدواعي على إخبارهم به، ومواصلة ذكره على أسماعهم، وأخذهم بمعرفته، وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكي أو مدني، وأن يعملوا في القول بذلك ضربًا من الرأي والاجتهاد(٣٦).

٣٦ – المنار ١/٤٣ –٤٤.

المبحث الثاني: المكـــي والمدنـــي

ترتبط معرفة المكي والمدني ودراستهما بأنواع عديدة من مباحث علوم القرآن، حيث لا يكاد يستفاد ببعضها دون التعرف على ما جاء من كون الآيات مكية أم مدنية، فبينهما نوع ارتباط يدركه المشتغلون بهذا العلم.

ومن تلك المباحث: "نزول القرآن، حيث يعتبر البحث في المكي والمدني فرع عنه.

ومنها: الناسخ والمنسوخ؛ لأن المتقدم ينسخ المتأخر، ولا يعرف ذلك إلا بمعرفة المكي من المدني.

ومنها: أسباب النُّزول، ويظهر الارتباط الوثيق بينهما، فيما إذا صح نزول آية في حدث مكي أو في حدث مدني، فإن سبب النُّزول يدل على المكي والمدني من هذه الجهة، مع ملاحظة أن بعض ما يُحكى في الأسباب قد يكون من باب التفسير، وليس من باب الأسباب الصريحة، وفي هذه الحالة يمكن تفسير الآية المكية بحدث مدني، ولا يكون هذا التفسير دليلاً على مدنية الآية كما سيأتي.

ومنها: أسماء السور، حيث ينص من يعدد السور المكية والمدنية على أسمائها، ويمكن الاستفادة من هذه الآثار في تعدد أسماء بعض السور؛ لأنها تختلف في تسمية بعض السور (٣٧).

كما أن لمعرفة المكي والمدني له ارتباط جزئي بالأحرف السبعة من جهة أن القرآن المكي وصدراً من المدني كان على حرف واحد، والقرآن المدني نزلت فيه الرخصة بالأحرف السبعة، ويمكن القول بأن نزول الأحرف السبعة مدني"(٣٨).

تعريف المكي والمدني:

يعرف أهل العلم المكي والمدني تعريفات متعددة ومن أحسنها تعريف من عرف المكي والمدني باعتبار زمان النزول، وذلك بجعل الهجرة حداً فاصلاً، فقالوا:

"المكي ما نزل قبل الهجرة؛ وإن كان بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة؛ وإن كان بمكة، وما نزل في أثناء الهجرة قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة؛ فهو مكي". وبهذا الاعتبار تعتبر آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

---

[٣٧] ينظر مثلاً: الإتقان في علوم القرآن (١:٢٥ – ٢٦)، فقد أورد أسماء السور التي نزلت بمكة والتي نزلت بالمدينة، وفي رواية عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن تجد اسم السورة (محمد) في عداد المدني، وتجدها في رواية عن ابن عباس (القتال).

[٣٨] – المحرر في علوم القرآن: د. فهد الرومي ص١٠٠ بتصرف.

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: آية ٣] ضمن الآيات المدنية مع أنها نزلت بعرفة أثناء حجة الوداع.

وهذا التعريف رجحه العلماء لأنه حاصر وضابط، ولا تخرج عنه آية من آيات القرآن، لأن من عرفه باعتبار مكان النزول قالوا: "المكي ما نزل بمكة وما جاورها ك (منى، وعرفات، والحديبية) والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها ك (أحد، وقباء، وبدر)، فإنه غير حاصر ولا ضابط، لأن ليس كل القرآن اقتصر نزوله على هذه الأمكنة؛ بل هناك آيات قرآنية نزلت في تبوك، والطائف، وبيت المقدس وغيرها"(٣٩).
وقد نقل عن هبة الله بن سلامة المفسر البغدادي ت ٤١٠ هـ تقسيمان للمكي، هما: المكي الأول، وهو ما نزل في مكة قبل الهجرة، والمكي الأخير: وهو ما نزل فيها بعد الفتح(٤٠)، وهو يشبه القول الأول.
ونقل عن غيره ثلاثة تقسيمات يرجع إليها تعريفات المكي والمدني مردها للآتي:

الأول: اعتبار زمن النزول، وهو الذي ذكرته آنفًا.
فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة، أو عرفة: مدني، كالذي نزل عام الفتح، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّواْ الأَمَانَات إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: آية ٥٨]، فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: آية ٣]، وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده.

الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمِنى وعرفات والحديبية. والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأُحد وقُباء وسلع. ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة وحصرها، فما نزل بالأسفار أو

---

٣٩ – وهذا الترجيح من قول: مكي بن أبي طالب القيسي، والعز الديريني ينظر: الاتقان السيوطي ١/ ٢٢. والمدخل لعلوم القرآن الكريم د. إسماعيل عبد الستار الميمني ص٤٧.، ومحاضرات في علوم القرآن غانم قدوري الحمد ص ٧٦ و ٧٧.
٤٠ – يراجع البرهان للزركشي ١/١٧٨.

بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة(٤١)، فلا يسمى مكيًّا ولا مدنيًّا، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيًّا.

الثالث: اعتبار المخاطَب، فالمكي: ما كان خطابًا لأهل مكة، والمدني: ما كان خطابًا لأهل المدينة. وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكي، وما فيه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ مدني. وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تُفْتَتَحْ بأحد الخطابين، وأن هذا الضابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنية، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: آية ١٦٨].. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الحج آية: آية ٧٧]، وسورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وسورة الحج مكية، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: آية ٧٧]، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار والازدياد منها(٤٢).

٤١ – السبب في ذلك أن سورة الفتح نزلت في السفر وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ..﴾[التوبة: آية ٤٢] نزل في تبوك وقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ سورة الزخرف. نزل في بيت المقدس.

[٤٢] – مباحث في علوم القرآن مناع القطان ص ٥٦-٥٧.